المؤسسة العسكرية البحرية

تمهيد: اكتسبت الجزائر بعد إلحاقها بالدولة العثمانية مكانة وهيبة دولية والفضل يعود إلى أسطولها البحري الذي اهتمت به الإيالة وسعت إلى بناءه وتطويره خلال القرن 16م، فأصبحت بذلك قوة إقليمية بامتياز، حيث استطاعت أن تفرض سيادتها على السواحل الجنوبية الغربية للبحر المتوسط، وأن تحمي سواحلها وموانئها من هجومات الدول الأوروبية المتعددة خاصة منها الإسبانية، كما فرضت سيطرتها على البحرية الأوروبية المسيحية وبثت الرعب في أوساطهم وقامت بفرض الجزية على أغلب دول أوروبا حتى الولايات المتحدة الأمريكية، كما لعبت دورا كبيرا في مساندة الدولة العثمانية في حروبها ضد أعدائها.

نشأة البحرية الجزائرية وتطورها خلال العهد العثماني:

يعتبر القرن 16م العصر الذهبي للبحرية الجزائرية نظرا لما تميزت به من قوة وتعدد وحداتها وحجم الغنائم البحرية التي كانت تتحصل عليها وقد أولى حكام الجزائر اهتماما كبيرا في بناء وتطوير الأسطول البحري لأنه يعتبر محور أساسي في قوتها العسكرية فجعل منها قوة بحرية بارزة في المنطقة.

وكان الجيش البحري يتكون في بداياته الأولى على بحارة عثمانيين ممثلين في الإخوة بربروس الذين عرفوا بحبهم للبحر وولعهم به، وكان على رأسهم خير الدين الذي يعود له الفضل في وضع أسسها حيث جعل من ميناء الجزائر قاعدة بحرية بعد أن طرد الإسبان من صخرة البنيون التي كانت تشرف على مدخل ميناء الجزائر عام 1529، لذلك نجد العثمانيين هم من ساهم في تنمية وتطوير هذه المؤسسة من الجانب المادي والبشري.

وفي أواخر القرن 16م انظم إليهم الأندلسيون والأهالي والعناصر المسيحية الوافدة من مختلف الدول الأوروبية بعد اعتناقهم للإسلام المعروفون بالأعلاج واستطاعوا أن يتولوا مناصب عليا في البحرية الجزائرية، علما بأن البحرية الجزائرية كانت مفتوحة على مصراعيها لكل الراغبين في الانضمام إلى هذه المؤسسة بشرط اعتناقهم للدين الإسلامي.

لقد ساهم وجود العثمانيين في الجزائر واستقرارهم بها في تحويل نشاط البحرية بالبحر الأبيض المتوسط إلى مؤسسة قائمة بذاتها تشرف على مجموعة من رياس البحر تحكمت في إدارة البحرية وتنظيمها وتمويلها وتوظيف طاقمها حتى القيام بعمليات حربية بشكل جيدوفي هذا الشأن يجمع المؤرخون الأوروبيون والأمريكان وحتى الرحالة الأجانب على أن البحرية الجزائرية كانت منظمة أحسن تنظيم زيادة على شجاعة أهلها كما وصفوها بالقوة والعظمة وأشاروا إلى تميزها بكفاءة طاقمها بقولهم: "ومرساها عامر بالسفن ورياسها موصوفون بالشجاعة وقوة الجأش ونفوذ البصيرة في البحر يقهرون النصارى في بلادهم فهم أفضل من رياس القسطنطينية بكثير وأعظم هيئة وأكثر رعبا في قلوب العدو..." فلقد كانت تهدد مصالح الدول الأوروبية في البحر المتوسط. فقد التزموا بعقد معاهدات معهم للسماح لهم بالملاحة في المنطقة مقابل إتاوات وقروض وكانت الجزائر تعامل الأسرى معاملة حسنة مع السماح لهم بممارسة طقوسهم الدينية.

لقد بلغ نشاط البحرية الجزائرية ذروته في النصف الثاني من القرن17م حيث كانت تضمن للدولة مداخيل معتبرة واعتبرت إحدى أهم الدعائم الأساسية لاقتصاد الإيالة من خلال تزويدها بمصادر أساسية منها:

1- حمولات السفن بالغنائم التي تؤخذ من البحر.

2- مبالغ افتداء الأسرى.

3- الإتاوات التي تدفعها الدول الأوروبية لحماية سفنها.

4- مصدر تحصل عليه المؤسسة البحرية من خلال الإذن بالإرساء.

كان القرصان الجزائري يمتاز بمهارة في الملاحة والبراعة في عملية جلب الغنائم فرغم أن البحرية الجزائرية كانت تقليدية في نظامها خلال القرنين 17و18 إذا ما قورنت مع نظم البحرية الأوروبية التي أصبحت تعتمد على الأساليب المتطورة والمناهج العلمية والابتكارات، إلا أنها استطاعت أن تلعب دورا مهما في تاريخ الجزائر العثماني وقد اتسم دورها في بداية

الأمر بالدفاع وذلك من خلال صد الهجمات الخارجية للدول الأوروبية خاصة منها الإسبانية ثم الهجوم وذلك من خلال مشاركتها مع الدولة العثمانية في حروبها.

وفي نهاية القرن 17م بدأ نشاط البحرية الجزائرية يعرف نوعا من التراجع خاصة بعد ظهور أساطيل أوروبية قوية، وتزامن ذلك مع التدهور الذي شهدته البلاد خاصة في المجال الاقتصادي والاجتماعي أدى ذلك إلى اتساع الهجمات العسكرية التي كانت تشنها الدول الأوروبية من وقت لآخر بأساطيلها على السواحل الجزائرية بغية إضعاف قوة البحرية الجزائرية ومن ثمة القضاء عليها ومن أبرز الحملات الأوروبية التي ساهمت في إضعاف الأسطول الجزائري خلال القرن 18 نجد الحملات الإسبانية الثلاثة: حملة الضابط أوريلي 1775، وحملتا الدوق أنطونيو بارثيلو الأولى والثانية (1783-1784) إضافة إلى الحملة الأمريكية عام 1815وفيها أصيب الرايس حميدو بقذيفة مدفع قوية كانت سببا في تراجع نشاطه وظهوره قرصان بطل.

وفي نهاية القرن 18 عرفت البحرية الجزائرية نوعا من النشاط والانتعاش والسبب يعود إلى الأوضاع التي كانت تعيشها دول أوروبا وشعوبها من تردي الأوضاع الاجتماعية وازدياد حدة الإقطاع وفساد الأنظمة السياسية والملكية المطلقة والرجعية. لقد انتعشت البحرية الجزائرية خاصة في فترة اشتغال أوروبا بحروب الثورة الفرنسية عام 1789 وحروب نابليون وما صاحبهما من فوضى حيث تضاعفت عدد القطع البحرية في أسطول الإيالة فوصل إلى 41 قطعة، وبرز في هذه الفترة الكثير من البحارة الأكفاء يتصدرهم الضابط الرايس حميدو، هذا الأخير الذي لم يكن علجيا ولا تركيا، بل كان ابنا لخياط جزائري توجه إلى البحر كشاب عامل في غرفة السفينة، تميز بالذكاء والشجاعة الأمر الذي أهله على أن يكون نفسه حتى وصل إلى رتبة ضابط ثم رتبة أمير البحر على جميع الأسطول الجزائري، حيث استطاع أن ينظم البحرية الجزائرية وأن يعطيها نفسا جديدا من خلال تعزيز دورها في البحر المتوسط، حيث وكان يتحصل على الكثير من الغنائم والأسرى بعد نزوله إلى سواحل البرتغال وصقلية

ونابولي وجزر البحر الأبيض أدت إلى امتلاكه ثروة طائلة أكسبته الاحترام والتقدير من عامة الشعب.

غير أن الانعاش الذي عرفته الإيالة الجزائرية لم يعمر طويلا سرعان ما تضاءل وتراجع مع مطلع القرن 19م خاصة عندما اقترحت الدول الأوروبية في مقدمتها بريطانيا في مؤتمر فيينا 1815 تشكيل قوة عسكرية موحدة والنزول بها إلى البحر الأبيض المتوسط لمحاربة إيالة المغرب عامة والجزائر بصفة خاصة فقام أسطولها بقيادة اللورد إكسماوثExmouth بمعية تشكيلة بحرية هولندية من قصف مدينة الجزائر وميناءها وأسطولها الراسي به في 15 ماي 1816م ووقف ما سموه استعباد الأوروبيين. فوضعت بذلك هذه الحملة حدا للانتعاش الذي عرفته البحرية الجزائرية كما أنها تمكنت من تحرير عدد من الأسرى المسيحيين دون فدية.

لقد كانت حملة اللورد إكسماوث بمثابة الضربة الموجعة والقاسية التي تلقتها البحرية الجزائرية، إذ تمكنت من تحطيم جزء كبير من تحصينات الجزائر وتخريب عدد كبير من وحدات الأسطول التي كانت راسية في الميناء ولم ينج منها سوى قطعتان كانتا بوهران. فأصبحت الجزائر تملك سوى مجموعة محدودة من السفن الكبيرة أغلبها لا يصلح للإبحار، إضافة إلى مجموعة أخرى من السفن الصغيرة والمتوسطة، كما هدمت دار الصناعة بما تحتوي عليه من خشب البناء وتصليح السفن والأجهزة البحرية المختلفة وكذلك دمرت حاملات المدافع والبراميل ومخازن السفن من مختلف الأنواع. وبذلك تكون حملة إكسماوث قد غيرت الأوضاع لصالح فرنسا فاسترجعت امتيازاتها في الجزائر عام 1817.

رغم محاولات دايات الجزائر تجديد الأسطول والوقوف في وجه السياسة الأوروبية الرامية إلى تصفية القوة الإسلامية في مياه المتوسط، ومسارعة الدولة العثمانية إلى تقديم الدعم والعتاد الضروري للجزائر فإن قوة البحرية الجزائرية ظلت متواضعة لم تزد عدد سفنها عام 1825 عن 14 قطعة ومنذ ذلك الوقت لم يعد يوجد أسطول بحري قوي على الشكل

الذي كان عليه خلال القرنين 16 و 17م. فهذه القوة تحطمت من جديد في معركة نافرين البحرية غرب اليونان عام 1827، وهي تعد من أعنف المعارك البحرية بين الأساطيل العثمانية الجزائرية والمصرية وبين الأسطول البريطاني الفرنسي الروسي المتحالف فانهزم العثمانيون في المعركة، وسقطت الجزائر في قبضة الاستعمار الفرنسي عام 1830. وطرد الأتراك وسلبت أملاك المواطنين وتم تهجير الأوروبيين إلى مدينة الجزائر ولم يجد الفرنسيون عند استيلائهم على الجزائر بقيادة المارشال دي بورمون سوى 35 قاربا صغيرا وثلاث قليوطات على وشك الانتهاء من صنعها في الترسانة البحرية و 2500 بحار أغلبهم غير قادر على ركوب البحر والتصدي للسفن المعادية.

عوامل ازدهار النشاط البحري الجزائري: تعود قوة البحرية الجزائرية في العهد العثماني إلى عدة أسباب نذكر منها:

1- استراتيجية الموقع الجغرافي للجزائر وطبيعة سواحلها على امتداد يصل إلى 1200 كلم وهي مفتوحة على أوروبا ومتحكمة في الحوض الغربي للبحر المتوسط.

2- اعتمادها على الأوروبيين (الأعلاج) وهم المسيحيون الذين اعتنقوا الإسلام وارتبطوا بالجزائر رغم اختلاف أصولهم (إغريق، إسبان، فرنسين...) إلا أنهم شكلوا حوالي ثلثي الشخصيات القيادية في البحرية، فاستفادت من خبرتهم الجزائر.

3- مهارة البحارة الجزائريين وكفاءتهم الحربية وقدرتهم القتالية العالية التي مكنتهم من تحقيق عدة انتصارات من بينهم صالح رايس، علج علي، رايس حميدو... وغيرهم من الرجال الأكفاء الذين تميزوا بالذكاء والشجاعة.

4- مبدأ التسامح والترحاب اللذان كان يلقاهما البحارة الأوروبيون الراغبون في العمل بالبحرية الجزائرية خاصة الأعلاج الأمر الذي سمح للكثير منهم من تبوء مكانة عالية بعد اعتناقهم للإسلام وارتباطهم بالجزائر.

5- اكتساب البحرية الجزائرية مكانة مرموقة من خلال عملية الإنقاذ التي كانت تقوم

بها إضافة إلى المواجهات المتكررة مع الدول الأوروبية خاصة إسبانيا وإلحاق الهزائم بها عدة مرات.

6- الانضباط الذي كان يتميز به رياس البحر وحسن سلوكهم ومعاملتهم الطيبة للسكان.

7- إيمان البحارة الجزائريين بحق الدفاع عن البلاد وعن حرمة الإسلام بعد سقوط الأندلس وتحرش الإسبان بالسواحل الشمالية.

صناعة السفن: كانت السفينة هي الوسيلة الأساسية لدى طائفة رياس البحر، حيث حظيت باهتمام بالغ من طرف حكام البلاد وذلك بتطوير هياكلها وصناعة السفن والعمل على زيادة عددها، وقد تأسست دار للصناعة البحرية في بداية القرن 16م.

لقد ساهم كل من الأسرى والأعلاج والأتراك في مصانع بناء السفن فكان لهم دور كبير في التقدم التقني للسفن الجزائرية كما أوكلت مهمة صناعة السفن للعثمانيين الذين كانوا يستعينون بخبرة الأوروبيين الأحرار والأسرى والأندلسيين والأهالي وقد تم تشكيل ورشات لبناء السفن وتصليحها في كل من موانئ بجاية، الجزائر، شرشال. كما كان للمورسكين دور عظيم في صناعة السفن خاصة في الجزائر وشرشال وجيجل وقد صنعت السفن ذات الأشرعة الطويلة لتكون سريعة وسهلة القيادة وذات مرونة في توجيهها وبذلك يمكنها أن تلحق بالتجار المسيحيين أو يمكنها الهروب من السفن الحربية المسيحية، وكان جزءا من الخشب الذي كانت تصنع منه السفن يجلب إلى مدينة الجزائر من بجاية وشرشال وغيرها من الموانئ الصغيرة في شمال إفريقيا حيث يتوفر الخشب وكان الباقي ينقذ من السفن التي تؤخذ كغنائم والتي ليست صالحة للاستعمال في الغزوات (الغارات). أما الأشرعة والحبال والطلاء والقطران وغيرها من الضروريات فقد كانت تأتي من أماكن عديدة.

لقد تراجعت صناعة السفن في الجزائر مع مطلع القرن 19م حيث توقفت جل المصانع باستثناء مصنع الجزائر وجاء ذلك نتيجة القرار الذي أصدره الداي مصطفى باشا عام

1799 إذ منح بموجبه حق استغلال الغابات الواقعة بين بجاية والقل لليهوديين بكري وبوشناق، وقد سمح هذا الاحتكار بشراء الأخشاب مباشرة من الأهالي بأثمان أقل مما كانت عليه سابقا وهو الأمر الذي جعل الأهالي يستاؤون وينصرفون عن ممارسة هذا النشاط وتسبب هذا الوضع في تكديس الأخشاب على الشواطئ وعدم نقلها إلى ورشات الصناعة.

إدارة البحرية الجزائرية: كان يشرف على إدارة البحرية الجزائرية طاقم يتكون أساسا من:

أ- موظفو الميناء:

1- وكيل الحرج: يعد من الرياس الأكفاء يشغل منصب وزير البحرية، يتولى مهمة رئاسة ديوان الرياس ومعالجة كل القضايا المتعلقة بشؤون البحرية والنظر في العلاقات الخارجية كما يسهر على سير وحراسة المخازن ومراقبة واردات وصادرات البلاد على مختلف أنواعها.

يتمتع وكيل الحرج بقوة ومكانة عالية في حكومة الدولة، حيث أخذ يكتسب بمرور الوقت صلاحيات المساعد الرئيسي للدايات فأصبح الشخصية الثانية المؤهلة في الإيالة ليشغل منصب الداي في حالة شغور منصبه.

2- القبودان (القبطان): يعد من أبرز ضباط البحرية فهو القائد الأعلى للأسطول البحري عند خروجه من الميناء إلى عرض البحر.

3- ليمان رئيسي (قائد الميناء): يشرف على عمليات تفتيش الميناء ومراقبته وكانت له في الإيالة سفينة خاصة به يجوب بها المياه الإقليمية لمدينة الجزائر ليراقب شواطئها وحركة السفن التي تدخل وتخرج منها بالإضافة إلى معرفة هويتها وطبيعة مهامها، كما كان يهتم بالأخبار الدولية التي كانت تتناقلها السفن الوافدة إلى الإيالة، بالإضافة إلى استلام الرسائل الموجهة للباشا.

4- واردیان باشي: يعد من أبرز الموظفين في البحرية الجزائرية يشرف على مراقبة

الأعمال التي يقوم بها الخدم في الميناء والذين كان معظمهم من الاسرى الأوروبيين وكان يعين لكل رئيس سفينة العدد المناسب من الخدم للعمل على متنها.

طاقم السفينة:

1- القبطان رايس هو قائد السفينة.

2- باش رايس هو نائب قائد السفينة.

3- باش طبجي: ضابط مكلف بالمدفعية داخل السفينة.

4- الأغا: يهتم بمراقبة السفن وتقديم تقرير مفصل للداي بعد عودة السفينة.

5- باش دوماجي: يشرف على الأشرعة وكيفية استعمالها.

6- الامام: مهمته تلاوة القرآن وإمامة البحارة في الصلاة والدعاء لهم بالنجاح والنصر المبين.

7- الكاتب الذي يحفظ دفتر السفينة ويجرد الغنائم.

عوامل تدهور الأسطول الجزائري: تعود عوامل الضعف الذي لحق بالبحرية الجزائرية إلى عدة عناصر يمكن حصرها فيما يلي:

1- تدهور وتراجع صناعة السفن في الجزائر نتيجة القرار الذي أصدره مصطفى باشا عام 1799 إذ منح بموجبه حق استغلال الغابات الواقعة بين بجاية والقل لليهوديين بكري وبوشناق، حيث سيطرت مؤسستهما على تجارة الخشب المادة الأساسية لبناء الأسطول، كما منحهم حق احتكار هذه التجارة. وهذا راجع إلى قوة النفوذ المالي لليهود بالإيالة، وقد سمح هذا الاحتكار بشراء الأخشاب مباشرة من الأهالي بثمن أقل مما كانت عليه العهود السابقة الأمر الذي جعل الأهالي ينصرفون عن ممارسة هذا النشاط ويعزفون عن ركوب البحر.

2- التحالف الأوروبي ضد القوى الإسلامية بالبحر المتوسط إثر الحروب النابليونية حتى تمكنت من فرض حصار بحري إثر مؤتمري فيينا عام 1815 وإكس لاشبيل عام 1818 هذا ما ساعد على تصفية البحرية الجزائرية بحجج واهية مثل إطلاق سراح الأسرى

والامتناع عن القرصنة.

3- الحملات الأوروبية على الجزائر التي ساهمت في إضعاف الأسطول الجزائري من خلال شنها للعديد من الهجمات العسكرية خلال القرن 18م مثل حملة الضابط أوريلي 1775، حملتا أنطونيو بارثيلو الأولى والثانية (1783-1784) إضافة إلى الحملة الأمريكية عام 1815،ثم حملة اللورد اكسماوث 1816.

4- معاناة الجزائر من قلة التجهيزات البحرية إذا ما قورنت بتقدم الصناعة البحرية الأوروبية التي اعتمدت على الأساليب المتطورة والتقنيات الحديثة.

خاتمة:

في الأخير نقول بأن فترة الحكم العثماني كانت من أهم فترات تاريخ الجزائر الحديث لما تحمله من أحداث مميزة في جميع المجالات، فقد كان لظهور الإخوة بربروس بسواحل المغرب الأوسط دور في تغيير موازين القوى بين المسيحيين والمسلمين وأدى أيضا إلى تأسيس الدولة الجزائرية الحديثة عام 1519م، حيث أصبحت للجزائر حدود واضحة ومكانة و هيبة دولية وعلاقات ديبلوماسية متعددة مع العالم الخارجي وانعكس ذلك على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية وقد ارتبطت هذه المجالات بمدى استقرار السلطة الحاكمة ومدى كفاءتها في تسيير شؤون البلاد على جميع المستويات.